الإسلام وأزمة العصر
"حرب مقدسة وإرهاب غير مقدس"

تأليف: برنارد لويس

ترجمة: أحمد هيكل

تقديم ودراسة: رءوف عباس

تقديم ودراسة

بقلم: رءوف عباس

أزمة الضمير عند برنارد لويس

لعل مستشرقاً لم يحظ بالشهرة الإعلامية الواسعة فى الغرب، تتردد أصداؤها فى العالم كله، مثلما حظى برنارد لويس، الذى يعدونه "عميد دراسات الشرق الأوسط"، و"حجة تاريخ الإسلام والعرب"، بل و"حكيم العصر". وتتسع دائرة "الترويج" له فى جميع أجهزة الإعلام الغربى المقروءة والمسموعة، وتتوفر معلومات عنه على ما يزيد على ستين موقعاً على "الإنترنت"، تضم معلومات عن كتبه، ونصوص بعض مقالاته، ومحاضراته، وأحاديثه ومقابلاته الصحفية والإذاعية، تتصدرها جميعاً – تقريباً – بصورة "نمطية" سيرته الذاتية المختصرة التى وضعها على موقع جامعة برنستون.

ورغم هذه الشهرة الواسعة، لم يضف برنارد لويس إلى الدراسات التاريخية المتصلة بالإسلام والمسلمين سوى رسالته للدكتوراه عن "الطائفة الإسماعيلية وجماعة الحشاشين"، وحتى هذه تجاوزتها بحوث العديد من المؤرخين فى الغرب والشرق. غير أنه تبنى مشروعاً ظاهره

"علمى"، ولكن جوهره سياسى محض، وهو تقديم صورة الإسلام إلى الغرب كما تعكسها مرآة لويس، الذى يريد أن يرسخ فى أذهان قارئه صورة سلبية للإسلام تخدم توجهه الصهيونى المحض، وما هذا الكتاب الذى نقدمه للقارئ العربى إلا نموذجاً فجاً لأسلوب لويس فى تقديم الإسلام والمسلمين للغرب.

ترى.. من هو برنارد لويس، وما دلالة ما يقدمه من أعمال عن الإسلام والمسلمين ؟

ولد برنارد لويس بمدينة لندن عاصمة بريطانيا فى مايو 1916 لأسرة يهودية إشكنازية، لعلها نزحت إلى بريطانيا فى القرن التاسع عشر مع موجة الإضطهاد الذى عاناه اليهود فى وسط أوروبا فى ذلك الحين، فلا تتوفر لدينا معلومات محددة عن البلد الذى نزحت منه عائلة لويس أو تاريخ ذلك النزوح، لأن برنارد لويس لا يذكر فى سيرته الذاتية المختصرة – التى كتبها بنفسه وأودعها موقع جامعة برنستون بالشبكة الدولية للمعلومات (الإنترنت) – شيئاً عن أصوله، كما لم يشر إلى عائلته، وطفولته، وتعليمه العام، مكتفياً بالإشارة إلى تعليمه العالى. غير أن التحاقه بجامعة لندن فى أوائل الثلاثينات يوحى بانتمائه إلى أسرة ثرية، فحصل على درجة الليسانس الممتازة فى التاريخ من مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية بجامعة لندن عام 1936، كما حصل على درجة الدكتوراه فى تاريخ الإسلام من نفس المدرسة عام 1939، وأثناء إعداده لرسالة الدكتوراه، قضى فترة بجامعة باريس (السوربون)، كما قام بجولة فى بلاد الشرق الأوسط استغرقت بضعة شهور.

وقبل حصوله على درجة الدكتوراه بعام واحد عين مدرساً مساعداً بمدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية، غير أنه ترك العمل بالجامعة خلال سنوات الحرب (1940 – 1945) ليلتحق بخدمة المخابرات العسكرية البريطانية. وعاد للعمل بالجامعة حتى عام 1974، ولكن صلته بالمخابرات البريطانية ووزارة الخارجية البريطانية لم تنقطع، فقد ظل مصدراً مهماً يتم الرجوع إليه طلباً للمشورة فى كل ما يتصل بشئون الشرق الأوسط.

ولعل ذلك يفسر انصرافه عن دراسة تاريخ الإسلام الوسيط، واتجاهه – بعد الحرب العالمية الثانية – إلى دراسة تاريخ الشرق الأوسط الحديث، فنشر كتاباً عن "قيام تركيا الحديثة"، وآخر عن "تكوين الشرق الأوسط الحديث"، ثم أعاد نشر نفس الكتاب بعنوان "تاريخ الشرق

الأوسط فى الألفى عام الأخيرة" بعد أن أضاف إليه فصلين غطى فيهما جانباً من التاريخ القديم (بما يخدم دعاوى الصهيونية فى فلسطين)، وقدم عرضاً مختصراً للتاريخ الوسيط. كما نشر كتاباً أعاد فيه ترتيب مادة نفس الكتاب، أعطاه عنوان: "تعدد الهويات فى الشرق الأوسط". وقد استخدم لويس رصيده المعرفى المتواضع عن تاريخ الإسلام فى صياغة الأفكار التى يطرحها فى كتبه، وهو رصيد ضحل، يشى بالقصور فى متابعة ما حققه هذا الحقل الأكاديمى من تطور بعد الحرب العالمية الثانية فى الغرب ذاته. والأفكار التى يطرحها برنارد لويس فى كتبه سياسية محضة، موحية لصناع القرار فى الغرب، وموجهة للرأى العام الغربى لإقناعه بصورة الإسلام والمسلمين والعرب كما يرسمها لويس، مغلفة بغلالة أكاديمية رقيقة لإضفاء بعض المصداقية عليها.

وبعد أفول نجم الهيمنة البريطانية فى الشرق الأوسط، واضطرار بريطانيا إلى تنفيذ سياسة "الإنسحاب شرق السويس" عام 1971، ليسدل بذلك الستار على النفوذ البريطانى فى الإقليم، وتصبح الولايات المتحدة الوريث الطبيعى للمصالح الغربية فى الإقليم، وجد برنارد لويس أن وجوده فى بريطانيا لم يعد له جدوى، وأن مكانه الطبيعى هناك، فى الولايات المتحدة، حيث مركز التأثير فى صناعة القرار الغربى فى الشرق الأوسط. وخاصة أن صهيونية الرجل حقيقة لا مراء فيها، أكدها فى كتاباته، ومقالاته الصحفية، وأحاديثه الإذاعية المسموعة والمرئية، ومحاضراته العامة. ويكفى أن درجتين من بين درجات الدكتوراه الفخرية الثمانى التى حصل عليها، جاءتا من إسرائيل، وتحرص الجامعة العبرية بالقدس على الإحتفال بعيد ميلاده فى خضم الإحتفال بقيام الدولة العبرية، ويحرص لويس – سنوياً – على حضور تلك المناسبة العزيزة على قلبه.

وهكذا جاء انتقال لويس إلى جامعة برنستون بالولايات المتحدة عام 1974 أمراً منطقياً، بعد ما ترك خلفاء له بمدرسة الدراسات الشرقية بلندن عرفوا بمشايعتهم للصهيونية، من أمثال فاتيكيوتس وياب. وفى أمريكا تولى برنارد لويس قيادة اللوبى الصهيونى فى حقل دراسات الشرق الأوسط، والدراسات الإسلامية بالجامعات الأمريكية، من صنائعه الذين انتشروا فى أقسام ومراكز بحوث الشرق الأوسط والدراسات الإسلامية بالجامعات الأمريكية، ممن يلعبون دور الخبراء العالمين ببواطن الأمور، الذين يقدمون المشورة لأعضاء الكونجرس، ومجلس

الأمن القومى، والخارجية، ووزارة الدفاع (البنتاجون)، يتقدمهم لويس، ويفتح أمامهم أبواب مراكز التأثير فى صناعة القرار الأمريكى عامة، وما اتصل منه بالشرق الأوسط خاصة.

وظل برنارد لويس أستاذاً لدراسات الشرق الأدنى بجامعة برنستون حتى تقاعد (رسمياً) عام 1986 عند بلوغه سن السبعين، ولكنه أصبح منذ ذلك التاريخ أستاذاً فخرياً Professor Emeritus، وهو مركز لا يشغله فى جامعات الغرب إلا النخبة من العلماء البارزين، ولكنه يحتل موقعاً مؤثراً فى صنع السياسة الأمريكية، شهد به بول وولفوفتز Paul Wolfowitz – نائب وزير الدفاع الأمريكى – فى الكلمة التى وجهها للمحتفلين بالعيد السادس والثمانين لميلاد برنارد لويس بمدينة تل أبيب عام 2002، حين قال:

"استطاع برنارد لويس أن يضع – باقتدار – علاقات وقضايا الشرق الأوسط فى سياقها الرحب بموضوعية وأصالة، وفكر ثاقب مستقل.. لقد علمنا برنارد كيف نفهم التاريخ المهم والمركب للشرق الأوسط، وكيف نهتدى به لتحديد وجهتنا التالية لبناء عالم أفضل للأجيال القادمة".

ومضى وولفوفتز فى حديثه ليشير إلى أن الإدارة الأمريكية اهتدت بعلم برنارد لويس فى صياغة سياستها "للحرب ضد الإرهاب" بإعتباره "المنظر الأساسى Chief Ideologue لكل ما اتصل بالعالم العربى والإسلام.

والواقع أن لويس لعب – على ضوء تصريحاته وأحاديثه وكتاباته– دور المنظر لليمين المحافظ الجديد وإدارة بوش الإبن، فى صياغة السياسة العدوانية المعادية للعرب، والداعمة للبلطجة الإسرائيلية فى المنطقة، والداعية للاستخدام المفرط للقوة العسكرية الأمريكية فى الإقليم. ويقف دونالد رامسفيلد وزير الدفاع، ونائبه وولفوفتز على رأس مريدى برنارد لويس. ولا أدل على ذلك مما نشرته صحيفة USA Today فى عددها الصادر يوم 21 سبتمبر 2001، من أن اجتماعاً عقد فى 19 سبتمبر 2001 (كان موعده قد حدد سلفاً قبل أحداث 11 سبتمبر) لمجلس مستشارى وزارة الدفاع رأسه ريتشارد بيرل Richard Perle وحضره برنارد لويس. كما التقى الرئيس بوش، ونائبه ديك تشينى، ودعى لعشاء عمل مع الأخير ورامسفيلد ووولفوفتز بعد حادث 11 سبتمبر بأسبوع واحد، وضعت فيه خطة ضرب العراق.

وصرح مسئول أمريكى (لم يذكر إسمه) لمجلة نيويوركر The New Yorker فى أبريل 2002 أن برنارد لويس نصح الإدارة الأمريكية بعدم الإهتمام بالتحذيرات القائلة بضرورة تجنب اشتعال الشارع السياسى العربى ضد أمريكا؛ لأن الناس فى ذلك المكان من العالم لا يفهمون إلا منطق القوة والحزم.

وعلى ضوء ما تقدم كان صدور كتاب لويس: "أين الخطأ، التأثير الغربى واستجابة المسلمين" الذى نقله إلى العربية محمد عنانى، ونشرته سطور عام 2003، وكذلك هذا الكتاب "أزمة الإسلام، حرب مقدسة وإرهاب غير مقدس" الذى نقله إلى العربية أحمد هيكل، وينشره المجلس الأعلى للثقافة فى إطار المشروع القومى للترجمة.

ولا يعنى نشر الكتابين بالعربية، تزويد القارئ العربى بفيض من المعرفة عن تاريخه القومى وثقافته العربية الإسلامية، فرغم ما يحظى به لويس من صيت عريض فى الغرب، لا تضيف معلوماته عن الإسلام شيئاً مفيداً للقارئ العربى، وما يتردد من أصدائها عند الرأى العام الغربى الذى أصبح الإسلام عنده يعنى – بفضل لويس وبطانته – الإرهاب والتعصب ورفض الآخر. هدف الترجمة أن يقف القارئ العربى على مصدر الأفكار المؤثرة فى رسم السياسات العدوانية تجاه العرب والإسلام والمسلمين التى يتبناها المحافظون الجدد فى الإدارة الأمريكية فى تناغم تام مع الصهيونية، وهدفها أيضاً لفت الأنظار إلى ميدان ما يسمى بدراسات الشرق الأوسط فى الغرب الذى يقع تحت هيمنة اللوبى الصهيونى فى توافق تام مع التأثير الصهيونى على الإعلام الأمريكى الذى يصوغ وعى الرأى العام هناك، ويؤثر على فهمهم لنا تأثيراً سلبياً، ويستدر تأييدهم للسياسات العدوانية ضدنا لصالح الصهيونية. وأخيراً تأتى ترجمة الكتابين حافزاً للنخبة العربية المثقفة لمواجهة إفتراءات اللوبى (الأكاديمى) الصهيونى بقيادة لويس، وتفنيدها، وكشف بهتانها وضلالها.

يحرص برنارد لويس على أن يوهم قارئه بأن ما يقدمه له يمثل رؤية علمية محايدة منزهة عن الهوى، ملتزمة الموضوعية، حتى يقتنع القارئ بما يقدمه له من أفكار. ففى كتابه "الإسلام فى التاريخ" Islam in History – مثلاً – يقول:

"قد يؤثر الإنتماء الفكرى للمؤرخ على اختياره لموضوع بحثه، ولكنه لا يجب أن يؤثر على تناوله له. فإذا وجد أن الجماعة التى ينتمى إليها تبدو له دائماً على صواب، وأن الجماعات الأخرى التى تواجهها دائماً على خطأ، وجب أن يشار عليه بضرورة إعادة النظر فيما توصل إليه من نتائج الدراسة، وأن يعيد النظر فى الفرضيات التى اختار على أساسها أدلته وشواهده، وقام بتفسيرها. لأنه ليس من طبائع البشر (ومن بينهم المستشرقين) أن يكونوا دائماً على حق.

وأخيراً يجب أن يكون المؤرخ منصفاً وأميناً فى عرض مادة موضوعه، وليس معنى ذلك أن يلزم نفسه حرفياً بترديد الحقائق الثابتة. إذ عليه أن يصوغ فرضياته فى مختلف مراحل دراسته، وأن يستخلص منها النتائج. ولكن من الأهمية بمكان أن يفعل ذلك بطريقة واعية لا لبس فيها، فيعرض الأدلة والشواهد فى مواجهة ما توصل إليه من نتائج، مختبراً مختلف التفسيرات الممكنة، ثم يحدد رأيه، ويبين الطريقة التى استند إليها فى هذا التحديد، ويبسط علة ذلك".

ولكن هيهات أن يدرك القارئ أن ما يقدمه لويس عن الإسلام له شبهة موضوعية، ونزاهة، وخلو من الغرض، وإلتزام الحقيقة الساطعة كما جاءت فى مظانها، بل يجد القارئ نفسه يتعامل مع رسالة "سياسية" تطفح بالكراهية للإسلام والمسلمين. وخاصة العرب، وتفيض بالإنحياز للصهيونية.

يبدو ذلك واضحاً فى كل ما ألفه برنارد لويس بعد الحرب العالمية الثانية، ويتخذ صورة فجة فى كتابيه: "أين الخطأ ؟" و"أزمة الإسلام" على وجه الخصوص. فقد كان الكتاب الأول يطبع عندما وقع حادث 11 سبتمبر 2001، وصدر فى غضون الأسابيع التى تلته، فتخاطفته الأيدى، ولقى اهتماماً واسعاً، فتعددت العروض التى كتبت عنه فى الصحف والمجلات. لأنه قدم الإسلام والمسلمين فى إطار معين باعتبارهم "خطراً" موجهاً ضد الغرب، وأكد عداء الإسلام للمسيحية، بل رفضه لغيره من الأديان والثقافات الأخرى، وذهب إلى أن المسلمين يعادون السامية بدليل موقفهم الرافض لدولة إسرائيل. وأورد فى خاتمة الكتاب نفس المقولات التى جاءت بكتبه السابقة، فالمسلمون لا يحسنون استيعاب ما إقتبسوه من الغرب، فباءت مساعيهم للحاق بركب المدنية الحديثة، مدنية الغرب، بالفشل الذريع،

فراحوا يبحثون عن "كبش فداء" هنا وهناك، لتبرير تخلفهم، وعجزهم وقصورهم، ويصبون جام غضبهم على الغرب، دون أن يدركوا ما وقعوا فيه من أخطاء هى – عنده – رفض الحضارة الغربية والعداء للسامية. وينتهى إلى نتيجة واحدة: فالمسلمون قوم أوغاد بطبعهم، يكرهون الآخر، ويريدون ذبح الغرب واليهود إنتقاماً لعجزهم وتخلفهم.

وجاء حادث 11 سبتمبر، ونسبته إلى "القاعدة"، ليجعل من برنارد لويس فيلسوف ما سمى "الحرب ضد الإرهاب"، وبات الإرهاب – فى نظر الرأى العام الغربى– يمثل الوجه الآخر للإسلام، بفضل أبواق الدعاية الإعلامية، و"حكمة" برنارد لويس، وجهود تلاميذه من أقطاب اللوبى الصهيونى الميهمن على حقل دراسات الشرق الأوسط بالولايات المتحدة الأمريكية من أمثال: مارتن كريمر Martin Kremer، وستانلى كيرتز Stanley Kurtz، ودانيال بايبس Daniel Pipes وغيرهم.

ونشط برنارد لويس خلال عامى 2001 و2002 فى إلقاء المحاضرات، وكتابة المقالات، أو إعادة ترتيب مادة بعض المقالات، ثم نشرها بعناوين جديدة (تماماً كما فعل فى كتبه)، ليزرع فى أذهان قراءه وسامعيه أن ما حدث فى 11 سبتمبر ليس غريباً، بل يعبر عن جوهر الإسلام والمسلمين، فالدين الإسلامى جعل "الجهاد" فريضة على كل مسلم، والجهاد يعنى القضاء على غير المسلمين بإعتبارهم كفاراً.

وفى عام 2003، جمع برنارد لويس مادة تلك المقالات والأحاديث والمحاضرات، وأعاد ترتيبها ترتيباً يتنافى مع ما سبق أن أوردنا من حديثه عن "الموضوعية" و"النزاهة"، والتزام "الحيدة" فيبدو التحيز ضد الإسلام والمسلمين واضحاً من العنوان الذى اختاره للكتاب "أزمة الإسلام، حرب مقدسة وإرهاب غير مقدس".

وقد سبق أن قمنا بدحض افتراءات لويس التى جاءت فى كتابه "أين الخطأ"، وبينا فساد ما توصل إليه من نتائج، استناداً إلى أعمال مؤرخين ينسبون إلى الغرب، ونشروا أعمالهم بالإنجليزية والفرنسية، وسوف نتناول كتاب "أزمة الإسلام" بنفس المنهج معتمدين – أيضاً – على كتابات لبعض المستشرقين المشهود لهم بالتعمق فى فهم الإسلام، وأهله، وثقافته، ومعرفة مصادر دراسته، وإمتلاكهم لناصيتها، ولم نشأ الاستشهاد بأعمال المؤرخين العرب

والمسلمين المحدثين حتى نضع عمل لويس فى إطار أدبيات الاستشراق، ليقف القارئ على وزنه الفعلى بين تلك الأدبيات.

إختط لويس لنفسه منهجاً خاصاً به، يقوم على التقاط بعض الشواهد، دون النظر إلى سياقها، ثم استخلاص نتيجة معينة منها، وتعميم هذه النتيجة على الإسلام كله، أو على المسلمين جميعاً، حسبما اتفق ذلك مع الغرض الذى كتب لويس من أجله ما كتب. ومقدمة هذا الكتاب "أزمة الإسلام" نموذج لمنهج برنارد لويس الفريد فى بابه. فهو يبدأها بسقوط الخلافة على يد مصطفى كمال (أتاتورك) بعد هزيمة الدولة العثمانية فى الحرب العالمية الأولى، وقيام دولة تركيا الحديثة، باعتباره حدثاً جللاً أصاب "النظام السياسى" الإسلامى فى مقتل لصالح النظام السياسى الغربى. لماذا ؟ لأن "الخليفة" كان الرئيس الدينى والسياسى للدولة الإسلامية والمسلمين، ولذلك حاول بعض حكام المسلمين أن يحصل لنفسه على المنصب الشاغر، كما تعلقت آمال المسلمين باستعادة الخلافة؛ على نحو ما يرد على لسان "أسامة بن لادن"، ويشرح لقارئه مدى أهمية الخلافة. فمنذ وفاة الرسول تولى رئاسة الأمة والدولة من حمل لقب "الخليفة" وكان "خليفة رسول الله" فى أول الأمر، ثم اختصر لقبه ليصبح "خليفة الله"، وظله على الأرض، مما يعطى للمنصب وزناً دينياً كبيراً ويضفى عليه نوعاً من القداسة.

ومن ثم راح لويس يعدد سمات الإسلام "بإعتباره ديناً ونظاماً للحياة والسياسة" فالمسلمون لا يطيقون العيش مع غيرهم، ولا يعترفون بالأديان الأخرى، بل يعدون أصحابها كفاراً، بدليل طردهم ليهود خيبر ونصارى نجران من الجزيرة العربية. فالإسلام دين عدوانى، ونبى الإسلام كان قيصراً وصاحب إمبراطورية، إرتبطت عنده الرسالة الدينية بالسلطة السياسة، لأن "الشريعة" تتناول كيفية اكتساب السلطة وممارستها، ومدى شرعيتها، وواجبات الحاكم والمحكوم، لذلك يطالب "رجال الدين" بالسلطة، ويمارسونها فعلاً فى إيران.

ويدلف من هنا إلى تقديم نص كامل لبيان زعمت صحيفة عربية تصدر فى لندن أنها تلقته بالفاكس من أسامة بن لادن فى 23 فبراير 1998 حمل عنوان "بيان الجبهة الإسلامية العالمية للجهاد ضد اليهود والصليبيين" وينتهى البيان بالدعوة إلى تلبية أمر الله بقتل جميع

الأمريكيين وحلفائهم، دون تمييز بين المدنيين والعسكريين. ويشير إلى ما دعم به إبن لادن "فتواه" من نصوص وأسانيد دينية.

وبغض النظر عن اعتماد "عميد دراسات الشرق الأوسط" و"حجة تاريخ الإسلام" – كما يسميه من يروجون له – إعتماده على مصدر واحد هو تلك الصحيفة التى يعرف الجميع صلاتها بعدد من أجهزة الاستخبارات، وسهولة "فبركة" مثل هذا البيان، ومن ثم ضرورة الحذر فى التعامل معه كمصدر للمعلومات، ما لم يتم التأكد من فحواه بالرجوع إلى مصادر أخرى موثوق منها، وهو ما يعرفه أى باحث مبتدئ، ويجب أن لا يتورط فيه "العميد" و"الحجة"، نجد لويس يتخذ مما جاء فى هذا البيان شاهدا على عدوانية الإسلام والمسلمين، وتكفيرهم لغيرهم، وحرصهم على القضاء على اليهود والنصارى.

والخلاصة – عنده – أن أسامة بن لادن هو المعبر عن الإسلام ونواياه تجاه العالم، وخاصة أنه المتهم الأول فى حادث 11 سبتمبر، وهناك أشرطة تسجيلية منسوبة إليه وإلى أتباعه، تعترف بتدبيرها للحادث وتنفيذها له، وتتوعد "الصليبيين واليهود" بالموت على أيدى المسلمين. وبذلك يستنتج القارئ أن الإسلام دين دموى، يعتنقه أناس ساديون من مصاصى الدماء، الذين يجب تخليص العالم من شرهم حتى يعيش العالم فى سلام.

وقبل أن نتناول تلك الصورة المهتزة التى قدمها لويس للإسلام على ضوء ما كتبه مستشرقون من أهل العلم بالإسلام والمسلمين، نتوقف لحظة أمام تنصيب برنارد لويس لأسامة بن لادن متحدثاً بلسان الإسلام والمسلمين معبراً عن عقيدتهم، فأحيله إلى مقال الكاتب البريطانى جون بلجر John Pilger المنشور فى صحيفة The New Statesman بتاريخ 10 يناير 2004 بعنوان "ما لا يريدونك أن تعرفه" What They Don't Want You To Know، حيث يعبر الكاتب عن عدم اعتراضه على اتهام "القاعدة" وإبن لادن بتدبير وتنفيذ هجوم 11 سبتمبر، ولكنه يذكر القارئ أن السحر قد انقلب على الساحر، وأن هذا الفصيل الإسلامى المتطرف تربى فى حجر المخابرات المركزية الأمريكية لضرب الوجود السوفييتى فى أفغانستان، وكذلك الحال بالنسبة لطالبان، فهؤلاء الإرهابيون "صنعوا فى أمريكا" مثلما صنع غيرهم من المنظمات الإرهابية فى أمريكا اللاتينية وأفريقيا وآسيا طوال النصف الثانى من القرن العشرين. وينبه الكاتب إلى ما تحويه ملفات منظمة العفو الدولية

من معلومات عن ملايين البشر الذين قضوا على يد الحركة الإرهابية التى رعتها المخابرات المركزية الأمريكية، ومن بينها تنظيم "القاعدة" و"طالبان" عندما كانت رعاية التطرف الإسلامى تخدم المصالح الإستراتيجية لأمريكا وصديقتها الحميمة إسرائيل. ومع سقوط الإتحاد السوفييتى وتغير الأوضاع الإقليمية فى آسيا، أصبح التخلص من "القاعدة" و"طالبان" هدفاً إستراتيجياً، فكان حادث 11 سبتمبر 2001 – فى رأى الكاتب – يوم سداد فاتورة رعاية الإرهاب. ولا بأس من استخدام "القاعدة" و"الإسلام العدوانى" لدعم ما يسمى "بالحرب ضد الإرهاب" وهو بناء الإمبراطورية الأمريكية على يد المحافظين الجدد.

ومن ثم جاء تنصيب برنارد لويس لأسامة بن لادن مفتياً وشيخاً للإسلام والمسلمين !!

ولنعد إلى الإطار الذى وضع فيه لويس الإسلام، باعتباره ديناً عدوانياً، لا يقبل التعايش مع الآخرين، وأن رسوله كان قيصراً وخلفاءه "خلفاء الله" وظله على الأرض. وقد اخترنا عمل المستشرق البريطانى مونتجمرى واط Montgomery Watt الذى يحمل عنوان "الفكر السياسى الإسلامى – المفاهيم الأساسية" The Basic Concepts Islamic Political Thought,، الصادر عن جامعة أدنبرة، 1968. ويرجع اختيارنا له إلى أن صاحبه يعد حجة – بحق– فى تاريخ الإسلام وثقافته، ويحتل مكاناً مرموقاً فى حقل الاستشراق، ولكنه لم ينل من الشهرة ما ناله برنارد لويس، لأن الحقيقة العلمية ضالته، بينما خدمة الصهيونية وأهدافها ضالة لويس، وشتان ما بين الرجلين.

لا يدرس واط الإسلام بمعزل عن المجتمع الذى نبت فيه، والمجتمعات التى انضوت تحت لواء دولة الإسلام الواحدة أو دوله ودويلاته المتعددة، واضعاً فى اعتباره واقع تلك المجتمعات، وموروثها الثقافى، وما له من أثر فى صياغة الفكر السياسى، ملفتاً النظر إلى أن القرآن والسنة لا يشيران إلى "النظام السياسى" الذى يجب أن تقام على أساسه "دولة الإسلام"، وأن ذلك ترك لاجتهاد المسلمين، باعتباره من "أمور الدنيا". ومن ثم جاء النظام السياسى معبرا عن واقع المجتمع، متغيراً بتغيره، وتغير مواقع وأوزان جماعات المصالح فيه، وصاغ مفاهيمه المختلفة فقهاء من مختلف العصور، إجتهاداً منهم – وفق قواعد الإجتهاد – فيما لم يرد فيه نص قرآنى أو حديث صحيح. فليس صحيحاً أن "الشريعة" المنزلة تناولت شيئاً من هذا، ولكن كل ما جاء بأعمال الفقهاء من شروط السلطة وشرعيتها وواجبات

الحاكم وحقوق وواجبات المحكومين، وكيفية التخلص من الحكم الفاسد، من اجتهاد فقهاء تغيرت وتعددت وجهات نظرهم بتغير الأحوال وتعاقب العصور، وما تناولوه، فى هذا الصدد – يعبر عن إجماع أهل الرأى فى عصر محدد على إضفاء الشرعية على الأعراف المتعارف عليها. وهكذا جاء الفكر السياسى الإسلامى معبراً عن إبداع فقهاء المسلمين.

ويقدم واط الفصل الأول من كتابه ما يدحض افتراءات لويس حول النبى القيصر، وطرد اليهود والنصارى من جزيرة العرب. عندما أشار واط إلى النظام الذى وضعه الرسول الكريم لحكم المدينة، فاختار له عنوان: "دستور المدينة"، وحدد أهم ما جاء به على النحو التالى:

1. يشكل المؤمنون ومواليهم "أمة" واحدة.
2. تتحمل كل قبيلة الدية أو الفدية الواجبة على من ينتسبون إليها.
3. على أفراد الأمة أن يتضامنوا تضامناً تاماً فى محاربة الجريمة حتى لو كان مرتكبها من ذوى القربى، ما دامت موجهة ضد أحد أفراد الأمة.
4. يتعاون أفراد الأمة تعاوناً تاماً ضد الكفار فى السلم والحرب، وفى منح حق الإجارة لمن يطلبها.
5. اليهود على اختلاف طوائفهم ينتمون إلى الأمة، ولهم الإحتفاظ بدينهم، وعليهم أن يقدموا العون للمسلمين، وكذلك يلتزم المسلمون بتقديم العون لهم فى السلم والحرب.

وقد رد واط هذه النصوص إلى أصولها فى مجتمع الجزيرة قبل الإسلام، فهذه الشروط تتفق تماماً مع صيغة "الحلف" التى كانت تبرمها القبائل العربية لمواجهة عدو مشترك تعبيراً عن العرف السائد فى الجزيرة العربية عندئذ. وتضمن "الدستور" تحديداً لوضع اليهود فى إطار "الأمة" الواحدة، فلم يهمشهم أو يستبعدهم. ولم يقع الصدام معهم إلا عندما نقضوا العهد، وتعاونوا مع قريش ضد المسلمين. ومع ذلك ليس هناك دليل واحد على طردهم من الجزيرة العربية هم ونصارى نجران، فمع اتساع حجم الدولة الإسلامية – بعد حركة الفتوح – ضرب هؤلاء فى الأرض يلتمسون سبلاً أفضل لكسب العيش مما كان متاحاً فى الجزيرة العربية وظل لهم وجود فى اليمن وأطراف الجزيرة العربية.

وبعد فتح مكة، وانضمام قبائل الجزيرة إلى الرسول الكريم، كان ذلك فى إطار الصيغة السياسية التى عرفها العرب، وهى صيغة "الحلف" الذى يرأسه الرسول، فلم تكن صيغة "الحكومة" المركزية معروفة عند عرب الجزيرة. ولما كان العرب بدواً يشكل الغزو جانباً من

مصادر عيشهم، فقد استفاد الرسول من ذلك فى توجيههم إلى توسيع مجال الإسلام بضم بقاع جديدة تحت لوائه، وهو الإتجاه الذى تدعم فى زمن الخلفاء الراشدين، فكانت حركة الفتوح الكبرى التى صفت الوجود البيزنطى فى الشام ومصر، وأسقطت إمبراطورية فارس.

ويدحض واط مقولة انتشار الإسلام بحد السيف، أو فرض الإسلام قسراً على شعوب البلاد التى دخلت تحت لواء الإسلام، مؤكداً على التمييز فى المعاملة بين البلاد التى فتحت عنوة وتلك التى فتحت صلحاً، وعلى وضع أهل الذمة الذين كفل لهم عهد الذمة الحماية والأمان، وبين كيف قامت الإدارة على كواهل أهل الذمة، وتبنى الفاتحين العرب للنظم الإدارية التى كانت سائدة عند الفرس والروم، وأشار إلى مشاركة القبائل النصرانية العربية فى فتوح الشام وأرض الجزيرة فى العراق، واللجوء إلى الأقباط (المصريين) والشوام المسيحيين فى الأسطول الإسلامى أيام الأمويين.

فلم يكن الإسلام عدوانياً، ولم يكن نبى الإسلام قيصراً، ولم ينف الحكم الإسلامى وجود غير المسلمين، طالما كانوا من أهل الكتاب الذين يؤمنون بوحدانية الله، بل عندما امتد الإسلام شرقاً ليضم الزرادشت والبوذيين، إعتبرهم من أهل الكتاب، ومد إليهم عهد الذمة، وتأثرت الثقافة الإسلامية بالموروث الثقافى للأقطار التى ضمتها الدولة الإسلامية، فكانت تلك التعددية العبقرية التى اتسمت بها الثقافة الإسلامية فى مختلف المجالات.

ويضع واط "الخلافة" فى إطارها الصحيح، فبين كيف واجه الصحابة مشكلة قيادة "الأمة عند موت الرسول" دون أن يكون لديهم من الكتاب والسنة ما يدلهم على كيفية التصرف، فكانت فكرة "الخلافة" التى اهتدت إليها نخبة الصحابة، لتكون خلافة للرسول فى رئاسة "الجماعة" و"إمامة" الصلاة وليست خلافة النبوة، فقد كان محمداً خاتم النبيين. واهتدى الخلفاء فى إدارة "شئون الدولة" الإسلامية الوليدة بالكتاب والسنة، وذلك فى إطار مبدأ "المصلحة" الذى جعل الخليفة عمر بن الخطاب يخرج الأرض الزراعية من الغنائم التى يجب توزيع أربعة أخماسها على المجاهدين، وجعله يبطل حد السرقة عند وقوع المجاعة، وجعل أبا بكر يحارب من امتنعوا عن دفع الزكاة حفاظاً على تماسك "الدولة" الوليدة. وتولى الخلفاء الراشدون الأمر من خلال "البيعة" التى كانت بدورها من التقاليد العربية السابقة على الإسلام. ولذلك انزعج المعارضون للخليفة عثمان بن عفان عندما رد على طلبهم له

بالتنحى عن الخلافة بقوله: "كيف أخلع قميصاً ألبسنيه الله" فعدوا موقفه هذا مخالفاً للشرع، وإغتالوه.

وحتى عنما تحولت "الخلافة" إلى ملك عضود على يد معاوية بن أبى سفيان، لم يدع أحد من خلفاء بنى أمية أن سلطته مفوضة إليه من الله، بل كان الإختيار يتم – أيضاً – بالبيعة. وكان العباسيون هم أول من استندوا إلى "الإرادة الإلهية" فى توليهم السلطة. ولم تظهر فكرة "التفويض الإلهى" إلا على يد دعاة الفاطميين، وقال بها بعض العباسيين فى خضم الصراع حول شرعية الحكم بينهم وبين الفاطميين، مع ملاحظة أن أوروبا فى ذلك العصر كانت تسودها فكرة "الحق الإلهى" للملوك، وظلت كذلك حتى القرن الساس عشر على أقل تقدير.

ولم يعد للخلافة وزن سياسى كبير بعد سيطرة العسكر على زمام الأمور فى الولة العباسية، وظهور منصب "أمير الأمراء" ثم "السلطان" لتتحول "الخلافة" إلى مجرد رمز للدولة، ومصدر لإضفاء الشرعية على الحكم القائم عن طريق "تفويض" الخليفة السلطة للسلطان. ولذلك لم يحفل العثمانيون كثيراً بلقب "الخلافة" قبل السلطان عبد الحميد الثانى الذى حكم فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر والعقد الأول من القرن العشرين، وجاء استخدامه له فى إطار تبينه لفكرة الجامعة الإسلامية كأداة سياسية لمقاومة السيطرة الأجنبية على ولايات الدولة العثمانية.

وعندما ألغى مصطفى كمال أتاتورك الخلافة عام 1924 لم ينشأ فراغ حقيقى عن هذا الإلغاء لأن المنصب كان قد فقد وزنه ومغزاه، وكانت دوافع المنادين بإحياء الخلافة – فى الأغلب والأعم – شخصية محضة. ومن هذا القبيل دعوة بعض المنظمات الإسلامية المتطرفة من أمثال "القاعدة" وزعيمها أسامة بن لادن – الذى نصبه برنارد لويس متحدثاً بلسان جميع المسلمين !.

ويشكل "الجهاد" المحور الأساسى فى كتاب لويس "أزمة الإسلام"، واختار له كلمة Holy War (الحرب المقدسة) التى تخدم فكرة عدوانية الإسلام التى يروج لها برنارد لويس. ولكن المستشرقين العدول من أمثال واط، وجون إسبوسيتو John Esposito صاحب كتاب "التهديد

الإسلامى، أسطورة أم حقيقة" The Islamic Threat, Myth Or Reality وهو أستاذ بجامعة جورجتاون، ورجل دين كاثوليكى، ومدير مركز التفاهم الإسلامى المسيحى بواشنطن. هذان المستشرقان (وغيرهما) يشرحان لقرائهما "الجهاد" بمفهومه الواسع. فالجهاد – لغة – يعنى بذل أقصى الجهد، وهو ينطوى على معان عدة: من بذل أقصى الجهد لكسب العيش، وطلب العلم، والسلوك القويم فى الحياة، ونشر الإسلام عن طريق الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، والسمو بالنفس عن النزوات والخطايا، إلى مقاومة كل منكر باليد أو اللسان أو حتى القلب (الضمير)، طالما أن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها، أما الجهاد بالسيف (القتال)، فللدفاع عن الوطن والمال، والعرض، ولتوسيع رقعة الإسلام. ويذهب كل من واط وإسبوسيتو إلى أن مفهوم "الحرب المقدسة" لا يعبر عن "الجهاد" تعبيراً دقيقاً، وأن استخدامه من جانب بعض المستشرقين جاء مغرضاً، لأن الأقاليم الكبيرة التى كسبها الإسلام كان لجهاد الدعوة على يد المتصوفة والتجار، اليد الطولى فى تحقيقه من الصين وجنوب الفليبين شرقاً حتى جنوب شرقى آسيا غرباً، ومن وسط آسيا شمالاً حتى الهند جنوباً، والكثير من هذه البلاد لم تطأه قدم جندى مسلم.

ومن مات مجاهداً فى سبيل الله أو مدافعاً عن وطنه أو ماله أو عرضه فهو شهيد. ومفهوم الجهاد فى سبيل الله لا يقتصر على الحرب وحدها ولكنه أعم من ذلك وأشمل.

ويبنى برنارد لويس على مفهومه للجهاد – باعتباره عدواناً مسلحاً على كل من يعتنق ديناً غير الإسلام– الطريقة التى قدم بها لقرائه مصطلح "دار الإسلام" و"دار الحرب"، فيدخل فى روع قارئه أن المسلمين يسعون دائماً إلى أسلمة العالم كله بالقوة، وهو بذلك يضرب على أكثر من وتر حساس. فهو يستعدى الغرب على من يهدده ويبرر ما تفعله إسرائيل بالعرب باعتباره حق دفاع شرعى عن النفس، ويثير مخاوف بلاد الغرب (أوروبا وأمريكا) من الجاليات الإسلامية التى ازدادت عدداً أملاً فى أن يؤدى ذلك إلى دعم القوى العنصرية المطالبة بطردهم. ويعكس ذلك براعة لويس فى تجسيد ما هو نظرى ليصبح واقعاً وهمياً، طالما كان يخدم الخط السياسى الذى ينشر كتبه دعماً له. بينما نجد مونتجمرى واط يضع المصطلح فى إطاره الفقهى المحض. فالإسلام يحرم الإقتتال بين المسلمين بعضهم البعض ومن ثم عد بلادهم "دار الإسلام" بينما أجاز لهم قتال غير المسلمين رداً لعدوانهم أو دفاعاً

عن مصالح دار الإسلام. ورغم ذلك دارت معظم حروب المسلمين داخل دار الإسلام صراعاً على السلطة أو توسيعاً لرقعة الدول الإسلامية المستقلة على حساب جيرانها، وأراق المسلمون دماء بعضهم البعض منذ الفتنة الكبرى حتى سقوط الأندلس أكثر مما أراقوا من دماء غير المسلمين من سكان "دار الحرب" ولم يكن للدين دور فى تلك الصراعات، بل كان بريئاً منها.

ويذهب لويس إلى أن الإسلام والمسيحية دينان لا يطيقان النقاش معاً، وأنهما فى صدام دائم لأنهما على نقيض اليهودية لا ينتسب كل منهما إلى عنصر معين، ويتجه إلى نشر دعواه فى العالم كله، ومن ثم تتقاطع طرقهما ويتفجر الصراع بينهما، حدث هذا فى صدر الإسلام مع الدولة البيزنطية ثم تآكلت تلك الدولة أمام الزحف الإسلامى حتى قضى عليها العثمانيون، كما حدث ذلك فى شبه جزيرة أيبريا (الأندلس). وجاء رد الفعل من جانب المسيحيين ممثلاً فى الحروب الصليبية ثم الزحف الاستعمارى الأوروبى.

كانت هذه الفكرة موضوع مقال نشره لويس فى مجلة The Atlantic Monthly عدد مايو 2003 بعنوان استفزازى "أنا على حق، وأنت على باطل، فلتذهب إلى الجحيم" وهو المقال الذى ترددت بعض مقولاته فى كتابه الحالى "أزمة الإسلام"، والتى يذهب فيها إلى أن عداء المسلمين للغرب مكون من مكوناتهم "الجينية"، وشعورهم بالمهانة تجاه الغرب المسيحى يعود إلى ذلك الثأر القديم، وما أصاب المسلمين من تخلف حضارى، بينما تقدم الغرب (المسيحى)، وفرض هيمنته عليهم، وهم لا يملكون سبيلاً للنيل من الغرب إلا تدميره على نحو ما فعله تنظيم "القاعدة" بنيويورك، فهم قوم يستهينون بالحياة، حياة الغير وحياتهم، فى سبيل الإنتقام.

وهنا تختلط الأوراق، وتتداخل الصور عند لويس، ويبدو كمن أصيب بعمى الألوان، فالعثمانيون ليسوا هم المسلمون وحدهم، ولا يمثلون منهم إلا قطاعاً محدوداً، وصراعهم مع إمبراطورية النمسا كان سياسياً إقليمياً لا شأن للإسلام به، ولا يوجد بين المسلمين (الذى يقدر عددهم الآن بنحو المليار وربع المليار مسلم) من يتذكر العثمانيين إلا نفر قليل، ولا يوجد بينهم من يتذكر حكاية "ثأر فيينا" الغريبة التى يسوقها لويس لقرائه. أما تقدم الغرب فله عوامله الموضوعية المرتبطة بالنمو الرأسمالى والتوسع الخارجى، وكانت بلاد المسلمين هدفاً

لذلك التوسع، وكان ذلك التوسع من أبرز عوامل إجهاض محاولات التنمية المستقلة مثل تلك التى شهدتها مصر فى عهد محمد على، وغيرها من المحاولات التى قامت فى النصف الأول من القرن العشرين. ولكن تناول لويس لمسألة تقدم الغرب وتخلف المسلمين تبدو للقارئ، فى ضوء تشخيص لويس للإسلام والمسلمين، وكأن مردها إلى قصور عند المسلمين يرجع إلى دينهم وثقافتهم، وأن مفتاح التقدم هو طرح ذلك كله، واعتناق الثقافة الغربية، عندئذ يتذوقون طعم "التقدم" !.

وفى الفصل الخاص "بالمعايير المزدوجة" يمضى لويس فى ترسيخ فكرة كراهية المسلمين للغرب، فهم يصرون على التمسك بهويتهم الإسلامية، من خلال تكوين منظمة دولية خاصة بهم هى "منظمة المؤتمر الإسلامى" التى تضم فى عضويتها الدول الإسلامية، وهم رغم ذلك عجزة لا وزن لهم، ولم يستطيعوا اتخاذ قرارات تخدم مصالحهم الإقليمية، لأنهم لا يعيشون فى إقليم واحد، وكل ما استطاعوا عمله تقديم بعض المعونات للأقليات الإسلامية فى أوروبا وأفريقيا. ولا يوضح لويس لقارئه أن تكوين تلك المنظمة تقرر فى المؤتمر الإسلامى للقمة الذى عقد بالرباط (سبتمبر 1969) للنظر فيما ترتب على إضرام الحريق بالمسجد الأقصى على يد الصهاينة، فكان تكوين تلك المنظمة عندئذ للدفاع عن المقدسات الإسلامية والحفاظ عليها، واستخدمتها الولايات المتحدة (من خلال الدول الإسلامية التى تدور فى فلكها) فى الحرب الباردة ضد الإتحاد السوفييتى. ولعبت تلك الدول دوراً مهماً فى تمييع الهدف الذى أقيمت المنظمة من أجله، وتحويلها إلى أداة للتضامن الشكلى بين مجموعة من الدول تتباين مصالحها الوطنية تبايناً واضحاً.

كذلك يتضمن الفصل ذلك الميل الغريب عند المسلمين للإرتماء فى أضحان كل من يعادى الغرب نكاية فيه، فقد صادقوا النازية، وتعاونوا مع هتلر على نحو ما فعل الحاج أمين الحسينى فى فلسطين، ورشيد عالى الكيلانى فى العراق، رغم أن ألمانيا النازية هى المسئولة عن إضطهاد اليهود ودفعهم إلى الهجرة إلى فلسطين، بينما كانت بريطانيا تمنع تلك الهجرة. ثم صادق العرب الإتحاد السوفييتى، رغم أنه كان صاحب المبادرة فى الإعتراف بدولة إسرائيل عام 1948، وفى مدها بالسلاح عن طريق تشيكوسلوفاكيا.

وهنا نجد طفحاً من المغالطات، فهو يعلم أن بريطانيا هى الدولة العظمى التى وعدت اليهود بإقامة وطن قومى فى فلسطين وضمنت صك الإنتداب على فلسطين، إلتزامها بتنفيذ ذلك الوعد (وعد بلفور الشهير)، وأقامت النظام الإدارى فى حكومة الإنتداب بما يكفل إرساء قواعد مؤسسات الدولة اليهودية المقبلة، ونظمت الهجرة اليهودية العلنية إلى فلسطين، وتغاضت عن الهجرة غير الرسمية التى اقترتب من أعداد الهجرة العلنية، ودربت عصابات الميليشيا الصهيونية على فنون القتال فى الحرب العالمية الثانية فلا عجب إذا كان الحاج أمين الحسينى قد سعى لكسب تأييد الطرف الآخر فى الحرب العالمية للقضية الفلسطينية، فهو ما كانت تفعله الصهيونية سراً أيضاً، ولا عجب إذا حاول العراق الاستفادة من ظروف الحرب للتخلص من الهيمنة البريطانية، وهى محاولة باءت بالفشل.

أما عن العلاقات مع السوفييت، فلويس يعلم جيداً أن الحظر الذى فرضه الغرب على توريد السلاح للدول العربية، وربطه لتقديم المعونات الإقتصادية بالدخول فى نظام الدفاع عن الشرق الأوسط، وعدم تشجيعه لمشروعات التنمية الإقتصادية فى البلاد العربية، كل ذلك جعل مصر تسعى لكسر احتكار السلاح بالإتجاه نحو عقد صفقة الأسلحة الشهيرة، ومواجهة قرار الغرب سحب عرض تمويل السد العالى بتأميم قناة السويس، والاتجاه نحو الإتحاد السوفييتى للمعاونة فى مشروعات التنمية. ولم يفرض الإتحاد السوفييتى على العرب التحالف معه ضد الغرب، ولم يتدخل فى تحديد مشروعات تنموية بعينها أو يملى شروطاً كتلك التى كان يمليها الغرب. لذلك وجدت مصر فى الإتحاد السوفييتى مصدراً مهماً للخبرة التكنولوجية والمعونة الفنية اللازمة لمشروعات التنمية، وحذت حذوها بعض البلاد العربية الأخرى.

أما عن سر كراهية العرب لأمريكا والغرب، فلابد أن برنارد لويس يدركه جيداً ، فهو يعود إلى الإنحياز الأمريكى للصهيونية، وخاصة فى أعقاب الحرب العالمية الثانية، عندما نقلت الصهيونية العالمية مركز نشاطها إلى أمريكا باعتبارها القوة الكبرى الصاعدة فى عالم ما بعد الحرب. ولعبت الولايات المتحدة دوراً فعالاً فى حشد الأصوات لدعم قرار تقسيم فلسطين (نوفمبر 1947)، وأسرع الرئيس ترومان بإعلان اعتراف الولايات المتحدة بإسرائيل بعد دقائق من إعلان قيامها فى 15 مايو 1948.

هذا الإنحياز الأمريكى للصهيونية، أصبح إنحيازاً لإسرائيل على طول الخط، استخدمت فيه الولايات المتحدة حق الفيتو فى مجلس الأمن 28 مرة (حتى مارس 2004) لإجهاض قرارات كان المجلس يعتزم إصدارها لردع إسرائيل، فى مواجهة عدوانها الدائم على الشعب الفلسطينى وجيرانها العرب.

هذا الإنحياز قال فيه باحث أمريكى – هو إيفان ولسون – فى دراسة نشرها بمجلة الجمعية الأمريكية للعلوم السياسية (عدد مايو 1972) بعنوان "الإهتمام الأمريكى بالقضية الفلسطينية وإقامة دولة إسرائيل" جاء فيها:

"إن سجل سياستنا تجاه فلسطين سجل مؤسف، لأن التخبط فى تلك السياسة أحبط أصدقاءنا، وأدى إلى الصدام بين الأطراف المعنية، وقد فشلنا فى تسوية المشكلة أو منع الإقتتال الذى ينشب من حين لآخر.

ولا شك أن تأييدنا لقيام الدولة اليهودية على حساب أغلبية الشعب العربى فى فلسطين، كان خطأ جسيماً له نتائجه المدمرة بالنسبة لعلاقاتنا بالعرب ومصالحنا بالمنطقة، فقد ربطنا أنفسنا – فى أذهان العرب – بالعناصر الإمبريالية الاستعمارية التى ناضلوا ضدها منذ الحرب العالمية الأولى، وأوقعنا تحيزنا لإسرائيل ودعمها بالمعونات فى تناقض كبير بين ما نقول وما نفعل، وبذلك لا يمكننا إقناع العرب بأننا نقف من الصراع موقفاً متوازناً".

هذا ما كتبه إيفان ولسون عام 1972، ترى... ماذا يمكن أن يقول اليوم بعد أن قطعت الولايات المتحدة شوطاً بعيداً فى تحدى الأمانى القومية المشروعة للعرب، وفى تأييد إرهاب دولة إسرائيل، ومساعدتها على الإفلات بما ارتكبته من جرائم الحرب فى حق الشعب الفلسطينى ؟ أليس هذا الموقف يشكل انحيازاً أعمى ضد المصالح الأمريكية الإستراتيجية فى الشرق الأوسط، فى عالم تتلاحق فيه التغيرات، ولا يدرى أحد ما قد يأتى به الغد ؟

يضاف إلى الإنحياز الأمريكى للصهيونية وإسرائيل، سياسة الهيمنة الإقليمية التى تمارسها الولايات المتحدة منذ الخمسينيات من القرن العشرين، والتى بلغت ذروتها الآن بإجتياح العراق والسعى لفرض نظام إقليمى جديد يحول الدول العربية إلى قوى هامشية ثانوية،

ويربطها بحلف الأطلنطى. ومن عجب أن ينعى علينا برنارد لويس – بعد ذلك كله – كراهيتنا للغرب وأمريكا !

يبقى حجر الزاوية فى موضوع الكتاب الذى من أجله نشره لويس، والذى أوقف حياته كلها على خدمته، ونعنى به "إسرائيل" التى يلومنا على كراهيتها رغم أنها "واحة الديمقراطية" فى الإقليم حتى إن أحد تلاميذه بالأردن ذكر له أن الشباب الأردنى يسعى لتعلم العبرية حتى يفهم الحوار "الديمقراطى" الذى يشاهده فى برامج التليفزيون الإسرائيلى، وخاصة أن الديمقراطية لا وجود لها فى العالم العربى.

وعندما يرد ذكر القدس عنده، يعتبر بناء المسجد الأقصى عام 691 تحدياً لليهود والمسيحيين لأنه بنى فى موقع هيكل سليمان، ويرى أن القدس لم يكن لها أهمية عند المسلمين بدليل تنازل أحد سلاطين الأيوبيين عنها للإمبراطور فردريك الثانى عام 1229 كجزء من تسوية سياسية. ويشير عرضاً إلى استرداد المسلمين لها بعد ذلك ولكنهم عادوا إلى الإهتمام بها إهتماماً غامضاً فى القرن التاسع عشر.

كما يذكر أن إسرائيل دخلت فى عملية سلام مع العرب بعد حرب تحرير الكويت 1991، ولكن (الأصوليين) عز عليهم أن يأتى إنقاذ منظمة التحرير الفلسطينية على يد أمريكا وإعتبروه أمراً مهيناً. وتعد قضية فلسطين هى المسألة المسموح فيها بالشكوى فى العالم العربى، وليس المسائل الإقتصادية والإجتماعية الملحة فى تلك البلاد التى يتم فيها قمع الرأى المعارض، ويرتبط بذلك الشكوى من السياسة الأمريكية لدعمها للحكام المستبدين فى المنطقة.

وهكذا يموه برنارد لويس الأمور على قارئه الذى تصب أجهزة الإعلام فى ذهنه أن فلسطين كانت دائماً وطن اليهود السليب، وأن سكانها من العرب قبائل رحل وفدوا إليها مع المد الإسلامى، وعاش اليهود تحت رحمتهم أذلاء، وأن تلك الأرض (التى بلا شعب) أولى بها اليهود الذين يمثلون (شعباً بلا أرض). وبذلك يبرر القارئ لكل ممارسات إسرائيل ضد العرب (المتعصبين الذين لا يقبلون التعايش مع الآخر). وتأتى مقولة "واحة الديمقراطية" لتكمل جوانب الصورة البراقة لإسرائيل، ولتخفى ما يعانيه المجتمع الإسرائيلى من مشاكل

عرقية ومذهبية وأيديولوجية لم تنجح دعوة (التوحد فى مواجهة الخطر الخارجى) فى تغطيتها.

ولا يشير لويس – طبعاً – إلى عمليات الإبادة التى يتعرض لها الشعب الفلسطينى وهدم البيوت واقتلاع المزروعات، ونكث كل ما قطع من عهود، والإعداد لترحيل الفلسطينيين عن ديارهم.

ترى.. من ينفى الآخر ويسعى لطمس هويته، أهم العرب الذين أفسدهم الإسلام، أم اليهود ؟!

أما عن القدس، فرغم الجهود المتواصلة لرجال الآثار اليهود فى التنقيب حول وتحت المسجد الأقصى، طوال ثلاثة عقود منذ وقوع المدينة تحت الإحتلال، لم يستطيعوا تقديم أدلة أثرية على صلة موقع المسجد بهيكل سليمان.

أما عن تنازل أحد سلاطين الأيوبيين عن القدس بعد أن استردها صلاح الدين الأيوبى، فيرجع إلى سوء سياسة ذلك السلطان، ولا يعنى عدم الإهتمام بالقدس، وإلا لما سعى المسلمون لاستردادها. وكانت زيادة الإهتمام بها فى القرن التاسع عشر مصاحبة لظهور الحركة الصهيونية وبداية هجرة اليهود إلى فلسطين.

وغنى عن البيان أن برنارد لويس يريد أن يدخل فى روع قارئه الغربى أن الوجود الإسلامى فى القدس وجود غير مشروع، فيه افتئات على المسيحيين واليهود، وأنهم مغتصبون لموقع المسجد الأقصى، واهتمامهم بالقدس اهتمام طارئ، ومن ثم يصبح تمسك الفلسطينيين بالقدس مجرد نكتة سخيفة، وتعد على حق اليهود (التاريخى) فى المدينة.

ولا يشير لويس – من قريب أو بعيد – إلى وجود مسيحيين عرب. ولا يريد لقارئه أن يشعر بوجودهم، ويتعرف على دورهم فى ظل الإسلام، ويحدد موقفهم – مثلاً – من الغزو الصليبى للمشرق العربى، حيث وقفوا إلى جانب إخوانهم المسلمين ضد "الفرنجة" الغزاة، لأنه لو فعل ذلك لهدم الإطار النظرى لهذا الكتاب وغيره من الكتب.

إننا لا ننكر أن الإسلام يعانى أزمة، ولكن نظرتنا "لأزمة الإسلام" وتشخيصنا لها يختلف تماماً عن "أزمة الإسلام" كما يراها لويس، فالإسلام فى حاجة إلى فقه جديد يصوغ أحكاماً تتفق مع ظروف العصر ويلبى حاجات المجتمع. كما يحتاج المسلمون إلى مشروع نهضوى يحقق التنمية بمختلف أبعادها فى إطار تضامنى تكافلى، قاعدته المصلحة الوطنية، وامتداده المصالح المشتركة التى تجمع البلاد الإسلامية بعضها البعض، فى عالم تتجه فيه الدول إلى التكتل حتى تخفف من آثار "العولمة".

إن كتاب لويس لا يعبر عن "أزمة الإسلام" ولكنه يعبر عن "أزمة الضمير" عند برنارد لويس، وبطانته من الصهاينة الذين يتحكمون فى حقل دراسات الشرق الأوسط فى الولايات المتحدة الأمريكية، ويوجهون صناع السياسات الاستعمارية الجديدة للهيمنة على الوطن العربى، لذلك يجب علينا أن نتبنى مشروعاً ثقافياً إعلامياً لمواجهة هذا الخطر الذى يهدد بلادنا فى الحاضر والمستقبل.